# ابن ميّادة

بقلم حسن عثمان

المدرس بالمدرسة الخديوية الثانوية

حكم الأصمعى عليه ـ خطأ الأصفهانى فى قوله : « إن ابن سلام تعرض لذكره ـ نقد أحكام الأقدمين على الشعراء ـ تحقيق نسب ابن ميادة ـ تعصبه لقومه واغتصاب الفرزدق لشعره ـ وراثته للشعر ـ تأثير الدم الصقلبى والعربى فيه ـ هجاؤه عقبة بن كعب ابن زهير خال أبيه ـ بعض نواحى خلقه وخطأ المبرد فى فهمها .

---

لست أدرى ماحاد بى عن الكتابة فى شاعر من فحولة الشعر ، وزعيم من زعماء القصيد ، إلى الكتابة فى ابن ميادة ، وقد أرجعه الأصمعى ، إلى ساقة الشعراء ، وردّه إلى مؤخرتهم ، فقد قال : « ساقة الشعراء ابن ميادة وابن هَرْمة ورُؤْبة وحكَم الخُضْرىّ ومكين العُذْرى ، وقد رأيتهم أجمعين » (١)

هذا حكم الأصمعى على ابن ميادة ، وهو حكم من رآه وخبره ، وناقله القريض وذاكره ، قد رماه فى زمرة الرجازين ، ولفه فى الشعراء المغمورين ، وعززه صاحب الأغانى فقال : « إن ابن سلام جعل ابن ميادة فى الطبقة السابعة ، وقرن به عمر بن لَجَأ ، والعجيف العقيلى ، والعجير السلولى ، فلما رجعت إلى طبقات ابن سلام ، لم أجد فيها ذكراً لابن ميادة أو العجيف العقيلى ، لا فى الطبقة السابعة ولا فى سواها من طبقات الشعراء الإسلاميين ، ووجدت عمر بن لجأ ، ذاك الذى هاجى جريراً وأخزاه وألجمه ضمن شعراء الطبقة الرابعة ، والعجير السلولى فى الطبقة الخامسة ، وقد وجدت شاعراً اسمه القحيف العقيلى فى الطبقة العاشرة ، ولعله هو العجيف العقيلى الذى أراده الأغانى ، أو لعله غيره ، ولكن ابن ميادة قطعا ، لم يتعرض إليه ابن سلام فى طبقات الشعراء ، وأرى أن هذه

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٨٩

إحدى هفوات أبى الفرج ، التى تلقى غبار الريب على روايته ، وتدعونا إلى تمحيص أخباره . والعصمة لله وحده .

وليس من شأنى الآن أن أعرض لما قال الأغانى عن ابن سلام ، أو أتكلم فى حكم الأصمعى على ابن ميادة وأظهر مافيه من حيف أو إنصاف ، فللأقدمين أحكام جائرة على كثير من الشعراء ، ما كانوا يبرمونها بعد نظر متروٍّ ، أو قلب نقى من شوائب الميل ، لأن العصبية العربية ، والدعوة الحزبية ، ومكانة الشاعر فى قومه ، ومكانة قومه بين العرب ، هى التى كانت تسيطر على أحكام الرواة ، وتتحكم فى آراء النقاد . فقد يفرض على الشاعر أن يكون من المتخلفين ، وينزل من سماء المجيدين ، ولا يشفع له فؤاد مطبوع ومعان شريفة ، وأسلوب رائق ، لأنه شيعى لايظاهر الخليفة ، أو لأنه هجين أو مولى من الموالى .

ولكنى سأتكلم فى نواح خاصة بابن ميادة ، جديرة بالبحث والتمحيص ، والعرض والتصحيح . ومن هذه النواحى ، مايجعل ابن ميادة — فى رأيى — خليقاً أن يكون فى جبهة الشعراء ، متبوئاً مكانة معاصريه كالفرزدق وجرير والأخطل ، من شعراء بنى أمية ، أولئك الذين ملأ ذكرهم سمع الزمان ، وعرفهم كل إنسان ، وجروا على كل لسان .

كنت إذا أعوزتنى حاجة ، إلى تصحيح علَم أو ضبطه ، أو تحقيق نسبه ، أرجع إلى مشورة القاموس المحيط ، فآخذ برأيه ، وأرجح قوله ، وأجعله فصل الخطاب ، بين العلماء الذين كتبوا فى هذه الأعلام ، واختلفوا فيها ، كابن النديم وياقوت ، والسمعانى ، وابن خلكان والحافظ الذهبى والسيوطى ؛ فلما أردت تحقيق نسب الرماح بن أبرد(١) بن ثوبان بن سراقة . . . . بن مرة بن عوف . . . . ابن غطفان ، المعروف بابن ميادة ، جعلت أقلب بطون الكتب ، وأدير الرأى فيما أقرأ ، فوجدت الكلام عن أمه ، قد أخذ اتجاهين اثنين ، فمن قائل إنها أمة فارسية ،

(١) جاء فى الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان (ص٢٩٦) أنه الرماح بن يزيد والصواب ابن أبرد .

لأنه قال يفخر على الناس ، ويدل عليهم بنسبه فى العرب والعجم ، ويزعم أنه خير من ولدت النساء فى قوله :

أنا ابنُ أبى سلمى ، وجدّى ظالم وأمى حصانٌ أخلصتها الأعاجمُ

أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم مَنْ نيطت عليه التمائم

ومن قائل إنها جارية أشبانية ( أسبانية ) من سبى الأندلس ، جىء بها من طريق الشام ، وابتاعها ثوبان ، وزوّجها ابنه أبرد ، فأولدها الرماح ، وبهذا يهجوه الحكم الخضرىّ ويتهكم به فيقول :

أأنت ابن أشبانية أدلجت به إلى اللؤم مقلات لئيم جنينُها

ولم يندّ عن هذين الرأيين إلا القاموس ، فقد ورد فيه أن « ميّادة مشددة ، أمة سوداء ، وهى أم الرماح ابن أبرد بن ثوبان الشاعر ، نسب اليها » . فلم أكن عند هذا حسن الظن بالقاموس وخامرنى الشك فى صدقه ، لأن من يدرس حياة الرماح ، ويستخلص منها طبائعه وشمائله . يجزم أن أمه ليست زنجية ولا تنزع إلى الزنوج بعرق ، ومن يعرف أن ابن ميادة كان « صلت الجبين ، حسن الطلعة ، أحمر سبطا ، عظيم الخلقة ، طويل اللحية ، لبّاسا عطراً » (١) قال عنه عكرمة : « ما دنوت من رجل كان أطيب عرفا منه ، يستبعد أن تكون عليه سمة الزنوج أو فيه رائحتهم . وقد كان يودّ الحكم الخضرى ، خصمه ومقارعه ، لو كان ابن ميّادة يمتّ إلى السواد بنسب ، أو ينزع إليه بسبب حتى يكون الهجو أبلغ ، والذم أوقع ، ولكنه لم يجد ما يعيبه عليه ، سوى أن أمه أشبانية أو صقلبية ، وقد كان عمود فخر ابن ميادة « نسب أبيه فى العرب ، ونسب أمه فى العجم » فمن أين نقل صاحب القاموس أن أمه زنجية سوداء ؟! والثابت الذى لا شك فيه ، أن ميادة أمة صقلبية أشبانية ، لا فارسية ولا زنجيه ، وإن كان الرماح نفسه يزعم أنها فارسية ، ولكن الشعراء فى معرض الهجو والإزراء ، كانوا يرمونه بأنها صقلبية ، وهم فى ذلك صادقون ، لأنه حينما

(١) ج ٢ ص ٢٦٨ أغانى

أنشد موسى بن سيار المرى ، وهو من عشيرته وبنى عمومته :

أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نيطت عليه التمائم

قال له « لقد أشحطت بدار العجوز ، وأبعدت بها النجعة فهلا غربت ؟ ، يريد أنها صقلبية ، ومحلها بناحية الغرب ، فقال : أى بأبى أنت ، إنه من جاع انتجع ، فدعها تسرى الناس ، فإنه من يسمع يَخَلْ ، أى من يسمع أخبار الناس ومعايبهم ، يقع فى نفسه عليهم المكروه ، فلم يستطع ابن ميادة إزاء الحقيقة التى رضخه ابن سيار ، ورده فيها إلى صوابه ، إلا أن يعترف معه بأن أمه صقلبية ، ولكنه تمسح فى الفرس ، ليستمجد بهم ، لأنهم كانوا أدخل فى المدنية وأثبت فى العراقة من الصقالبة .

وابن ميادة من مرة غطفان ، لا من مرة قريش ، ومن فتيان نجد ، الموسومين بصدق العاطفة ، وذكاء الفؤاد ، والاعتداد بالنفس ، وهو إلى هذا مجنون بحب قومه ، مفتون بعصبيته ، وإن الدم الصقلبى الذى جرى فى عروقه من أمه ، لم يخرجه من بيئة الصحراء ، ولم ينزع عنه عزة العرب ، ونصرة العصبية ، وأنفة البداوة ، ولكنه لم يكن فى نصرته يميل إلى الجفاء ، ولم يكن فى عزته يبلغ حد الجمود ، بيد أنه كان لعباً دَعِباً ، مرحا طربا ، خفيف الروح طيب النفس ؛ ولعل الريح الأندلسية ، التى نفحته من أمه قد أخرجته من جلافة العرب وخشونة طباعهم ؛ ولم تخرجه من قوة الشكيمة ، وشدة الكفاح ، والاستماتة فى العصبية ، والفخر بقومه ، والمناضلة عنهم ، حتى أذاع مكارمهم ، وسير فى الآفاق ذكرهم ، ونشر على سمع الناس صحيفة مجدهم فقال :

لو أن جميع الناس كانوا بتلعة وجئت بجدى ظالم وابن ظالم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجماجم

لقد ذكر هذا ، والفرزدق واقف عليه فى جماعة ، وهو متلثم ، فلما سمع هذين البيتين استعظمهما على ابن ميادة ، واغتصبهما منه اغتصابا ، على عادته مع غيره من الشعراء ، وقال : أنا والله أولى بهما منك ؛ وأقبل على روايته فقال اضممهما إليك :

لو ان جميع الناس كانوا بتلعة وجئت بجدى دارم وابن دارم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجماجم

ولقد عرف فيه بنومرة شاعراً مدرها ، حديد اللسان مذوداً . سمح القريحة مفحما ، فقدّروه قدره ، وأكبروه الإكبار كله وعدّوه أشعر غطفان ، فى الجاهلية والإسلام ، وقالوا إنه خير لقومه من النابغة ، وكان مقتصدا فى مدائحه حبسها على قيس قومه ، وعلى قريش أرباب الرسالة والخلافة ، فإذا جدّ الجد ، فضل قيسا على قريش ، ولم يبال أن يقول :

إذا حلّ بيتى بين بدر ومازن ومُرّة نِلتُ الشمس واشتد كاهلى
فضلّنا قريشا ، غير رهط محمد وغير بنى مروان أهل الفضائل

وأكبر ظنى أنه لولا حرمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولولا سطوة الخلافة فى بنى أمية ، لما استلّ من قريش أحدا ، وفضل قومه عليهم أجمعين .

ومالى أذهب بك بعيدا ، وقد بلغت به الجرأة ، أن يستخف ببنى أسد وتميم وقريش معهما ، ويستهين بغضب هؤلاء وهؤلاء ، اعتزازاً بقوة قيس عشيرته ، واعتماداً على عصبيته ، فيقول :

بنى أسد إن تغضبوا ثم تغضبوا وتغضب قريش ، تحم قيسا غضابها
وأحقر محقور تميم أخوكم وإن غضبت يربوعها وربابها
ولو أن قيسا قيس عيلان أقسمت على الشمس لم يطلع عليكم حجابها
ولو حاربتنا الجن لم نرفع القنا عن الجن حتى لا تهرّ كلابها
لنا الملك إلا أن شيئا تعده قريش ، ولو شئنا لذلّت رقابها
وإن غضبت من ذا قريش ، فقل لها معاذ الإله أن أكون أهابها
وإن غضبت قيس عليك تقاصرت يداك ، وفات الرجلَ منك ركابها

إنى لأحس فى هذه الأبيات ، التى يدوّى فيها الصلف والفخر ، فزعا شديدا ، يملأ قلب ابن ميادة من قريش ، وأنه قد أوجس فى نفسه خيفة منها ، وأن شيئين يتجاذبانه ، هما حمية نفسه الثائرة ، وتنكيلٌ يتوقعه من قريش ، فتراه فى بيت واحد يعلو ويهبط ، ويهاب ويثبُت ، ويستقر ويضطرب ، ويوشك قلبه أن يخونه ،

ويفر من بين جوانحه ، لولا أنه حبس جريء ، يتجافى عن مطارح الهوان ، ويتصوّن من معرّة الضراعة ؛ اسمع إليه ، وقد ضم ثيابه على أسد ، وثارت برأسه الحمية ، فطار بقيس إلى السماء ، وقصر الملك عليهم دون سواهم ، فلما أطلت عليه قريش من قمة الخلافة ، تراجع متعللا بأن الملك شيء تعده قريش من حقوقها ، فإذا شام فى هـذه الحقيقة مهانة وأنفا مخزّما جمع فؤاده ، وربط جأشه ، وقال : « ولو شئنا لذلت رقابها » . ولست أدرى ماالذى منع ابن ميادة وقومه أن يشاءوا؟ وكأنّ داعيا من ذات صـدره ، أهاب به أن يرفق بنفسه فلا يلقيها بين فكّى الأسد فقال :

وإن غضبت من ذا قريش فقل لها معاذ الإله أن أكون أهابها

ولعمرى إن الخوف ليصرخ من « معاذ الإله أن أكون أهابها » ، وإن الضعف ينّ فى نبراتها ، وإن القلق يضطرب فى كل حرف من حروفها . وإنه لتعجبنى تلك الصورة الناطقة ، التى صور بهـا ابن ميادة فى بيته الأخير ، مقدار الهلع والخوف ، الذى يستولى على قلوب الناس من غضب قومه ، فلا يستقر فارس على سرج ، ولا تثبت رجل فى ركاب ، ولا تقبض يد على عنان ، فحقت عليهم كلمة الهزيمة ، وجرى الموت وراءهم فأدركهم يرعدون ، وكأنه أراد بهذه الصرخة القوية ، أن يستر ما ذهب بكبريائه ، وطأطأ من إشرافه ، حين تعرض إلى قريش .

ومما لا ريب فيه أن ابن ميادة كان عنيفا غاية العنف ، فيه رغبة تستحثه على مهاجاة الشعراء ، وإذكاء نار الخصومة بينهم وبينه ، ليجد مجال القول ذا سعة ، فى إطراء قومه ، والإزراء بغيرهم ، حتى قالوا عنه إنه كان « عرّيضا للشر » ، ولقد يبلغ فى هجائه أن يكون قاسيا لاذعا ، شديد التهكم والإغفال لخصومه ، حتى يهبط بهم إلى مهاوى الصغار ، ويرميهم تحت مواطئ الهوان ، ألا تراه يترفع عن هجاء محارب ، ويتحدث فى أنفة أن العناية بأمثالها حمق لا ينبغى أن يتصف به ، لأن نفسه الكبيرة . وعشيرته العظيمة ، لا يجوز لها أن تقف من محارب موقف الخصم ، وأن تساجلها مساجلة الند للند فيقول :

أظنّت سفاها من سفاهة رأيها أن اهجوها لما هجتنى محارب
فلا وأبيها إننى بعشيرتى ونفسىَ ، عن ذاك المقام لراغب

وإن العجب ليأخذ منك مأخذا ، إذا كنت تعلم أن أباه أبرد ، كان ضلة من الضلال ورثة من الرثث ، جلفا ، قريبا إلى البلاهة والعته ، ثم يكون الرماح ابنه ، فيهذه الصرامة والعزة ، والنفس الحادة الشاعرة ، والخصومة العنيفة الهادمة ، وحسن البزة وبهاء الطلعة ، ولكن عجبك يزول إذا عرفت أن الدم الأجنبي أثر فيه تأثيرا عظيما ، فسوّى خلقه . وألان عطفه ، وأذكى فؤاده ، وطيب نفسه ، وأن البيئة العربية ، والحياة البدوية ، أخلصته من شوائب الضعف والاستكانة ، التي قد يحتمل أن تكون تسربت إلى نفسه من أمه الأمة ، وأن الشعر هبط عليه من جدته سلمى أم والده أبرد ، وسلمى بنت كعب بن زهير ، وناهيك بغلام يمتزج في عروقه الدماء الصقلبية بالدماء الزهيرية ، ثم ينتشي هواء نجد ، ويعيش في تلاله ووهاده . غير أن الشاعرية التي ورثها من زهير ، لم تشفع لعقبة حفيده لدى ابن ميادة ، حين تعرض لبني ظالم قومه ، فإنه خاصمه وهاجاه ووقع فيه ، برغم أنه خال أبيه ، فقال :

ولقد حلفت برب مكة صادقا لولا قرابة نسوة بالحاجر
لكسوت عقبة كسوة مشهورة ترد المناهل من كلام عائر

فرد عليه عقبة يغض من شأنه ، وينعى خئولته الضائعة عنده فقال :

ألوما أنني أصبحت خالا وذكر الخال ينقص أو يزيد
لقد قلدت من سلمى رجالا عليهم مسحة وهم العبيد

فقال ابن ميادة يبرأ من خئولته ، ويعدها مصدر العار له :

إن تك خالنا فقبحت خالا فأنت الخال تنقص لا تزيد
فيوما في مزينة أنت حر ويوما أنت محتدك العبيد
أحق الناس أن يلقى هوانا ويؤكل ماله العبد الطريد

ولعل القارئ يعرف أن ابن ميادة ، يشير في بيته الثالث ، إلى أن بني ظالم قومه ، سلبو عقبة بعيرا له وأكلوه ، فمن أجل ذلك يفخر ويعد خاله عبدا طريدا

لقد أصبح كل شيء هيناً مقبولا في نظر ابن ميادة ، إلا أن يهجو أحد قومه ، أو يبغي على عشيرته ، أو يعرض اليهم بالنقد حقا أو باطلا ، فتثور عند ذلك ثائرته ويجيش صدره حقدا عليه ، وتطير منه لواذعه وقوارصه ، فتقع عليه ، تجلله

ذاما ، وتكسوه عابا ، لا يعرف الهوادة فى ذلك ، ولا تأخذه رحمة بكل من يمس بالسوء قومه ، مهما تكن أواصر المودة ، وشواجر الأرحام قوية بينه وبينه .

وكان فى الرماح أنَسَة وظَرْف ، ودعابة ولطف . وكان مرحا فكها ، يحرش أصدقاءه وزائريه على أمه ، لينشدوها ما قال الشعراء فى هجائها فيثير بينهم وبينها معارك ، وتثور هى لكرامتها ، وتطاردهم بعكازتها ، فينهض هو ليخلصهم منها ، فتسبه وتشتمه ، وتقول له « يابن من خبث وشرّ » وتهوى إلى عصا تريد ضربه بها ، فيفر منها ، ويمعن فى دعابته ، ويقول : « ياصدقها ولم تكن صدوقا » (١) . وكان كثيراً ما يضرب بيده على جنبها ، ويقول لها :

اعر نرمى ميـــاد للقوافى واستمعيهن ولا تخافى
ستجدين ابنك ذا قذاف

يريد : إنى سأهجو الناس فيهجونك ، فاستعدى لسماع الهجاء مطمئنة ، لأنك ستجدين ابنك ، يرمى بقذائفه ، كل من يتعرض بهجاء له . وهذه الصورة الفكهة المثيرة المرحة ، تمثل لنا ناحية جديدة من نفس ابن ميادة لم تكن معروفة فى فتيان العرب ، ولا مألوفة لنا فيهم ، ولقد أخطأ فهمها المبرد (٢) وعدها عقوقا بأمه ، وقسوة منه عليها . ولقد أثر أنه كان شديد الحب لها . فخور بها ، أليس هو القائل :

أنا ابن ميـــادة تهوى نُجُبى صلت الجبين حسين مُرَكَّبى
ترفعنى أمى وينمينى أبى فوق السحاب ودُوَين الكوكب

حدث أبو داود الفزارى أنها كانت امرأة صدق . مارميت بشىء ، ولاسبت ، (٣) وإن خير ما وصف به ابن ميادة نفسه فى تيهه وأناقته ، وعنفه ولطافته قوله :

أنا ابن ميـــادة لباس الحلل أمَرُّ من مُرٍّ ، وأحلى من عسل

ولعل ما أسلفت يلقى اليك بفكرة شاملة ، وصورة جلية عن ابن ميادة وبعض نواحيه النفسية ، وسنعرض فى مقالنا التالى إلى غرامه ونسيبه ووصفه ومدائحه ومناقضاته بشىء من البسط والتحليل والتعليق . إن شاء الله .

حسن علوان

(١) ج ٢ ص ٢٦٤ أغانى طبع دار الكتب (٢) ج ١ ص ٣٤ الكامل
(٣) ج ٢ ص ٢٦٥ أغانى